في الدين

الحكمة في ارسال الرسل

للأستاذ محمود محمد ناصف

المدرس بمدرسة عبد العزيز

أراد الله أن يدل على نفسه لابني مجهولا فخلق هذا العالم ليستدل به النوع العاقل على وجوده تعالى ويشهد له بالقدرة الباهرة وبسائر الصفات اللائقة بالألوهية

فالإنسان هو المقصود بهذا الوجود وهو المخاطب بالتكاليف : ولذلك منحه الله وحده أداة الفهم للخطاب، وهي العقل، ليستعين به على معرفته تعالى وعلى فهم ما يراد به عاجلا وآجلا إلا أن هذا العقل ليس في سائر الناس على حد سواء فمنهم من استقل بعقله ووصل إلى إثبات الصانع بالبحث والعلم والنظر كبعض حكماء اليونان وغيرهم

ولكن هؤلاء العقلاء أفراد قلائل لا يصح أن يقاس عليهم جميع الناس ؛ وكل كل إنسان إلى عقله ولو ضعيفا. ولا يصح أن يكل الله الكافة إلى تقليد هؤلاء الحكماء لأن العقول البشرية مهما علت وارتقت فإن لها حدا مقدورا لا تتعداه

والحكماء إنما وصلوا إلى أمور كلية كوجود الصانع جل وعلا ؛ وعجزوا عن إدراك التفاصيل الجزئية كصفاته بالتفصيل والتعيين وكأنواع التكاليف والحقائق الغيبية ؛ كالمعاد والثواب والعقاب والجنة والنار لأنها من الغيب الذي لا يعلم إلا بتوقيف ولا حيلة للعقل فيه أصلا لعجزه عن اختراق الغيب المطلق

بل قد ضل بعض الحكماء ضلالا بعيدا فقال بقدم العالم وبأن الله لا يعلم الجزئيات ؛ كعدد الرمال وذرات الماء، فالزلل منهم غير مأمون. ولو وكلنا الله إليهم ضل المتبوع والتابع

وصلنا الآن إلى أنه ليس لائقا بحكمته تعالى أن يكلنا إلى عقولنا ؛ ولا إلى عقول حكمائنا لقصور العقول البشرية جميعا عن الاستقلال بإدراك ما يريده الله بنا من العقائد والتكاليف وأمور المعاد بالتعيين والتفصيل، ولو تركنا هكذا لكان ذلك إهمالا للإنسان وإهماله تفويت للحكمة في إيجاده بل في إيجاد العالم كله لأنه إنما وجد من أجل الإنسان ليستقر به ويستخدمه في الاستدلال على الله

إذا فما هي الطريقة : الطريقة أن يجيئنا خبر من عنده تعالى يعرفنا بوجوده وبصفاته وبالشرائع وبأخبار المعاد ؛ ولكن ما هي الكيفية التي يجيء بها هذا الخبر ؟

١ — لم يكن الله ليجيء بنفسه جهرة ؛ ويقول ها أنا الله : لأن ذلك مناف لمقام الربوبية

لمخالفته تعالى للحوادث على أنه لو تجلى على الناس بذاته لذهبت عقولهم عجزا عن احتمال جلاله وما كانوا يتذوقون بعدها بأنفسهم ولا بما يلقيه عليهم

٢ — وليس من الجائز أن ينبىء الناس جميعا فيصبح كل إنسان نبيا ملهما لأن ذلك مناف للحكمة الإلهية الأزلية في أن يكون الناس على مراتب مختلفة إيمانا وكفرا وطاعة وعصيانا وخاصة وعامة ، ولو نبئوا جميعا لما كان هناك حينذاك على للحساب ولا للثواب والعقاب ، لأنهم جميعا أنبياء مقربون ، أو نوع من الملائكة

٣ — فلم يبق معقولا من الوسائل إلا أن يوفد الله إلينا رسولا . وكثيرا ما تحدث النفوس تقول : أما كان الأخلق بالله أن يرسل إلينا ملكا لا بشرا ليكون أدعى إلى القطع بأنه من عند الله حقيقة ولكن لو أرسل الله ملكا على صورته الحقيقية لم ينتفع به للتنافر بين الملكية والأنسانية فتنتفي الألفة فيقع الأعراض عنه والتكذيب له لا القطع بصدقه

ولو تمثل الصورة الأنسانية لفاتت الفائدة من كونه ملكا ، وهي القطع بصدقه ، وما دامت المسألة قد رجعت إلى الصورة الأنسانية فليكن الرسول إنسانا ابتداء . وفي ذلك يقول الله تعالى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا »

اجمال الكلام في حكمة الرسالة

١ — أن يدل الله تعالى على نفسه كما هي الحكمة في خلق العالم

٢ — قصور العقل الأنساني عن الاستقلال بإدراك وجوده تعالى على الوجه اللائق به ، وعن إدراك التكاليف على صورها المرادة لله من التمهيد للمعاد وما فيه . ولو وكلنا الله إلى عقولنا لكان إهمالا لنا ، وإهمالنا إبطال للحكمة في إيجادنا ، بل في إيجاد العالم كله : لأنه مخلوق من أجلنا

٣ — استحالة ظهور الله بنفسه جهرة للناس لمخالفته تعالى للحوادث ولعجز العقول عن احتمال جلاله

٤ — استحالة تنبيء الناس جميعا لأن ذلك ينافي الحكمة في تفاوت مراتبهم

٥ — انتفاء الألفة بيننا وبين الملائكة لتنافر صفات النوعين

٦ — النتيجة هي أنه لم يبق من وسيلة للصلة بيننا وبينه تعالى إلا أن يرسل إلينا رسلا من نوعنا الأنساني يساعدون العقول ويهدونها إلى ما أراده الله لنا ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل

الرسل

على ما تقدم أن الرسول رجل أقامه الله واسطة بينه وبين الخلق ، ليرقيهم به ويبلغهم ما يريده لهم . وفي معنى الرسول والنبي ثلاثة أقوال(١) وهو أصحها ، أن كل رسول نبي من غير عكس ، فالنبي فقط هو الذي أوحي إليه بشرع يعمل به وحده ولم يؤمر بتبليغه (٢) أنهما متباينان تباينا كليا : فالرسول رسول فقط (٣) والنبي نبي فقط أنهما مترادفان بمعنى واحد ، فكل من أوحي إليه يسمى رسولا او نبيا ، سواء أمر بالتبليغ أو لم يؤمر به

صفاتهم

وإذا كان الناس قد استعظموا مقام النبوة على النوع الإنساني كما حكي الله عنهم في كتابه العزيز . وأبوا على الرسل إلا أن يروا الله جهرة أو ينزل عليهم كتابا من السماء يرونه بأعينهم حال نزوله . أو يكون رسولهم ملكا لا بشرا ـ إذا كان الناس قد طلبوا ذلك ؛ فما عسى أن يكون حال ذلك الرسول البشر في خلقه وخلقه حتى يطمئنوا إليه ويؤمنوا به ؟ أتراه رجلا من عامة الناس ، والناس لم يرضوا ببشريته إلا في ضرب من التسامح والتساهل ؟ وماظنك بما كانوا يعملونه لو وجد في خلقه مطعنا أو في بدنه منفرا ؟ إذاً لاجمعوا على رفضه وقالوا:

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلا لنفسك كان ذا التعليم

وإذاً لعابوا من في بدنه عاهة أو نقص وقالوا : ألم يجد الله غيرك نبيا يا أيها الأعمى أو الأبرص مثلا ؟

ولذلك كان من الضروري المعقول أن يكون الرسول رجلا ممتازا فوق العادة بوسعه أن يكون مع إنسانيته ملكا في خلقه ، معصوما ، مهما كبير العقل كبير الهمة سليم البدن والحواس ، ليحب الناس ويتلقوا دعوته بالقبول

حتى لقد كان المحقون بالرسل الأكثرون صحبة وعشرة لهم ، من هداهم الله ، في غنى عن المعجزات والآيات بما يشاهدونه من أنوار الرسالة وكلاهما الدالة بنفسها على صدقهم . فأحوالهم الشخصية والاجتماعية ، وما يبدو عليهم من الصفاء الروحي ، هي بذاتها آية أصدق آية . وفي هذا المعنى يقول سيدنا حسان رضي الله عنه :

لو لم تكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تأتيك بالخبر

ويقول صاحب البردة رضي الله عنه :

كفاك بالعلم في الأمي معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

ولم يجادل في الرسالات ويطالب بالمعجزات إلا المحجوبون من تلك الأنوار . حتى كابر في المعجزات بعد ظهورها من لم يرد الله هدايتهم